الصباح الإسلامية
AL-SABAH
www.alsabahpress.com Alsabah Media
No. 5054 | الخميس | 11 جمادى الآخرة 1446 هـ | 12 ديسمبر 2024 م | السنة السابعة عشرة

العبادة ... ضوابط وأسسٌ تُبنى عليها

أنزل الله -سبحانه وتعالى- على نبيّه محمد -صلّى الله عليه وسلّم- رسالة الإسلام، وجعل سبحانه دين الإسلام هو الدين الخاتم لكافة الأديان والشرائع السماويّة، وإنّ لله -سبحانه وتعالى- مُنزّل هذا الدين ومشرّع أحكامه، حقوقاً على عباده الذين خلقهم، وإنّ من أبرز هذه الحقوق وأجلّها: حقّ العبوديّة؛ فعبادة الله -سبحانه وتعالى- وحده لا شريك له، حقٌ له متفرّدٌ، وواجبٌ على عباده الذين خلقهم تأديته، وقد بيّن الله تعالى ذلك فقال -عزّ وجلّ- في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ× الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)، وهذا الحقّ واجبٌ على كل مسلَمَ، في كلّ زمان وكلّ مكان، ومن أجل هذا الحقّ خلق الله -سبحانه وتعالى- الثقلين؛ الإنس والجن، ومن أجله أرسل الرسل والأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وأنزل الكتب السماويّة؛ لهداية النّاس ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)، والعبادة في الدّين الإسلاميّ شاملةٌ لحياة الإنسان جميعها؛ لحركاته وسكناته في أيّ زمان وأيّ مكان كان، وهي ملازمةٌ للعبد حتى موته، بها شرّف الله تعالى الأنبياء والمرسلين عليهم الصّلاة والسّلام، وبها يسمو الإنسان إلى أعلى المراتب والدرجات، وبها يلتحق بعباد الله المُنعَمين، وبالتالي يكون الفوز والنجاح ونيل الجنّة التي وعد الله عباده الصالحين، قال الله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ× وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ).

معنى العبادة

العبادة مصطلح كغيره من المصطلحات العربيّة التي لها معنيان؛ أحدها في اللغة، والآخر في الاصطلاح، وفيما يأتي بيانٌ لكلا المعنيين:

1 – العبادة في اللغة هي اسمٌ، وجمعها عباداتٌ، ومعناها الخضوع للإله على وجه التعظيم، ويقال العبادة: الشعائر الدينيّة، وعبادة الأصنام؛ أي التعلّق بالأصنام والولع بها، وعبادة الشخص؛ أي التعلّق بشخص وتأليهه.

2 – العبادة في الاصطلاح لها عدّة تعريفات، منها:

– فعلٌ لا يراد به إلّا تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ وذلك بأداء أوامره.

– أعلى مراتب الخضوع لله -سبحانه وتعالى- والتذلّل له.

– التزام المكلّف ما خالف هوى النفس؛ تعظيماً لله سبحانه وتعالى.

– اسمٌ لما يحبه الله -سبحانه وتعالى- من الأقوال والأفعال، والأعمال الظاهرة والباطنة.

ما عبدناك حقّ عبادتك

الملائكة عبادٌ مكرمون، خلقهم الله تعالى من النور، لا يأكلون ولا يشربون، منّ الله -سبحانه وتعالى- عليهم بعبادته بأشكال العبادات المختلفة، قال الله سبحانه وتعالى: (وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ)، ومع ما وصفهم الله تعالى به من العبادة، وأنّ منهم من هو ساجدٌ منذ خلقه الله لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة، ومنهم من هو راكعٌ منذ خُلق، ولا يرفع رأسه إلى قيام الساعة، ومع ما هم عليه من عبادة، يقولون: سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك؛ محتقرين عبادتهم وأعمالهم في جنب الله تعالى؛ لأنّه لا يقدر أحدٌ أن يعبد الله -سبحانه وتعالى- حقّ عبادته، أو أن يعرف الله حقّ المعرفة، أو أن يعظّمه حقّ التعظيم؛ فمهما عُبد الله -سبحانه وتعالى- كان ذلك قليلاً في حقّه سبحانه وتعالى.

ضوابط العبادة الصحيحة

لعبادة الله -سبحانه وتعالى- ضوابط وأسسٌ تُبنى عليها، وهذه الأسس والضوابط هي:

– العبادة توقيفيّة؛ أي لا مجال للرأي فيها، بل يجب أن يكون المشرّع فيها هو الله سبحانه وتعالى، أو رسوله صلى الله عليه وسلّم.

– أن تكون العبادة خالصةً لله سبحانه وتعالى، لا تشوبها شائبةٌ من شوائب الشرك.

– أن يكون الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- هو القدوة في العبادة.

– أن تكون العبادة قائمةً على محبّة الله سبحانه وتعالى، والذل له، والرجاء إليه، والخوف منه.

– العبادة محدودة بمواقيت ومقادير لا يجوز تعدّيها أو تجاوزها؛ كالصلاة، أو الحج؛ فهذه لها أوقاتها المحدّدة التي تُؤدى فيها، والتي لا يجوز تعدّيها.

الحكمة من العبادة

تتجلى الحكمة والغاية من القيام بالعبادة في أمورٍ عدّة، ومن هذه الحِكم:

– العبادة حقٌ لله سبحانه وتعالى، وواجبٌ على الإنسان الانقياد والتسليم لأمر الله تعالى، الذي استحقّه بمقتضى ألوهيته وربوبيّته وكماله.

– العبادة غاية في ذاتها؛ وذلك لما يترتّب عليها من إصلاح للنفس وتهذيب لها.

– العبادة تنبيه دائمٌ للإنسان، إلى أنّه روحٌ قبل أن يكون جسداً، وأنّه كما للجسد مطالب فكذلك الأمر بالنسبة للروح؛ فهي لها مطالبها، وغذاؤها العبادة.

– العبادة تذكيرٌ للإنسان بالله الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى.

– العبادة تحريرٌ للإنسان من عبادة من لا يستحق العبادة من الأصنام والبشر والمخلوقات وغيرها.

– العبادة تحريرٌ للإنسان من الخوف والجبن والبخل، وكلّ الرذائل.

طريق العبوديّة

تُبنى عبادة الله -سبحانه وتعالى- على أصلين عظيمين، هما: الحب الكامل لله، والذلّ التامّ له سبحانه، وهذان الأصلان يبنيان على أصلين عظيمين أيضاً: مشاهدة منّة الله سبحانه وفضله، وإحسانه ورحمته الموجبة لمحبته، ومطالعة ومتابعة عيوب النفس، والعمل المورث للذلّ التامّ لله سبحانه وتعالى، ويُعدّ الافتقار إلى الله أقرب الأبواب التي يدخل منها العبد إلى ربّه، قال الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

لماذا خلق الله الخير والشر؟

لا ينبغي على الإنسان طرح سؤال لماذا خلق الله الشر أو الاعتراض عليه؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- هو الخالق وهو لا يُسأل عما يفعل، بل هو الذي يُسأل، وأمّا الحكمة من وُجود وخلق الخير والشر فهي كما يأتي:

– الابتلاء والاختبار للمُكلف؛ حيثُ يرى الله -تعالى- مدى صبره وتحمّله للحياة والتي تقوم على الابتلاء، لقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)، والبلاء هو امتحانٌ للإنسان في الخير والشر، سواءً أكان البلاء في المال أو الولد، أوغير ذلك.

– تحقيق ثُنائية الكون؛ فالخير لا يُعرف إلا من الشر، فبضدها تتميز الأشياءُ، والشر ضروريٌ لتدعيم الخير، والخير والشر وتقلب الإنسان فيهما من طبيعة الحياة في الدُنيا.

– الشرُ أمرٌ نسبيّ؛ فالأمر الذي قد يراه البعض شراً قد يراهُ آخرون خيراً، فقطعُ يد السارق على سبيل المثال شرٌ له، ولكن فيه خيرٌ للمجتمع لأنّ فيه ردع للناس من الاعتداء على أموال بعضهم البعض.

– تحقيق المعنى الحقيقيّ للاختبار العادل للمُكلّف؛ فقد بيّن الله -تعالى- للإنسان طريق الخير والشر، وأعطاه الحرية في الاختيار بينهما.

– الشر يُخرج أجمل ما في النفس الإنسانيّة من خصال حميدة؛ فعند الكوارث تزول الضغائن والأحقاد بين الناس، ويتكاتف المرء مع أخيه.

– الشر ضروريٌ لتحقيق التوازن البيئي الذي أوجده الله -تعالى- لحماية الأرض من الفساد.

– تحقيق الحكمة من استخلاف الإنسان في الأرض؛ وذلك من خلال تحويل الشر إلى خير، كما أنه وسيلة من وسائل التربية والتأديب؛ كما هو الحال في القصاص والعُقوبات الرادعة، بالإضافة إلى كونه مُقدمةً لما بعده من الخير، وفيه استشعارٌ لنعمة العافية، وفوات الشر عن الإنسان، واستمتاعه بالنعم الحاضرة والعطايا من الله -تعالى-.

– الشر فيه تخويفٌ للعُصاة، وتنبيهٌ للغافلين، كما أنّ فيه انتفاءٌ لفكرة البديل في الواقع، ليتحول تركيز الإنسان على الدار الآخرة.

– استشعار المؤمن لحلاوة الخير؛ إذ لا يُعرف الخير وحلاوته إلا برؤية الشر، كما هو الحال في التوبة؛ إذ لا يشعر التائب بحلاوة التوبة إلا بوجود الذنب.

– تحقيق معنى العُبوديّة التامة لله -تعالى-؛ وذلك من خلال اتباع أوامره، والخُضوع لما جاء عنه.

– بيان قدرة الله -تعالى- وإظهارها على خلق المتقابلات والمتضادات، كالخير والشر.

– الشر سببٌ لانشغال المرء بما فيه نفع؛ مثل العلم النافع والعمل الصالح؛ لأن النفس لابد لها من أحد الضدين، فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

مفهوم الخير في الإسلام

يُعرف الخير على أنّه كُل عمل فيه رضا الله -تعالى- وثوابه، كما يدخُل فيه كُل عمل يكون وسيلة للترقي في مراتب أحد الكمالات؛ كالكمال الفكري، والخلقي، والسُلوكيّ، والإبداعي، والتعايش الجماعي، كما يشمل الوسائل المُحققة للذات التي لا ضرر فيها ولا اعتداء على حُرمات الله -تعالى-.

كما يشمل مفهوم الخير المنافع التي لا ضرر فيها، أو المنافع التي لا تحتوي على ضرر مساو لها، أو المنافع التي تحتوي على ضرر لكن هذا الضرر لا يكون راجحاً، وكذلك يشمل المصالح التي لا مفاسد فيها، أو المصالح التي لا تتضمن مفاسد مساوية لها أو راجحة عليها، وقد عرف النبيّ -عليه الصلاةُ والسلام- البرّ والخير على أنّه كل ما اطمأن إليه القلب والنفس؛ قال -صلى الله عليه وسلم-: (البرُ ما اطمأنّت إليه النفسُ، واطمأنّ إليه القلبُ)، ويُجمع الخير كُله في دائرة المعروف.

مفهوم الشر في الإسلام

يُعرف الشر على أنه كُل عمل فيه سخط الله -تعالى- وعقابه، وكُل وَسيلة فيها هُبوط في النقص المُقابل للكمالات في الخَير، كما يشمل على كل عمل يكون وسيلة لتحقيق آلامٌ وصعوبات لا طاعة لله -تعالى- فيها، ولا منافع أو مصالح تُرجى منها، وكذلك يشتمل الشر على المضار التي لا تتضمن منافع راجحة عليها، والمفاسد التي لا تتضمن مصالح راجحة عليها.

وقد عرفه النبيّ -عليه الصلاةُ والسلام- على أنّه ما حاك في الصدر والنفس؛ أي لم تشعر الإنسان بالارتياح له والإقبال عليه؛ قال -صلى الله عليه وسلم-: (والإثمُ ما حاك في القلب، وتردّد في الصدر وإن أفتاك الناسُ وأفتَوْك)، ويُعرف الشر باسم المنكر.